بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ثمة عوامل كثيرة شجعت على تبنى موضوع هذا الكتاب واختياره ؛ فإذا ما رحنا نستقصى الدراسات الحديثة الجامعية وغير الجامعية نبحث عن دراسة مستقلة فيه ، أعيتنا السبل ، وأضنانا الجهد . وليس يُدرَى سر الابتعاد عن تناول الغزل فى هذه الفترة التى تشعبت فيها اتجاهاته ، وكثر شعراؤه ، وتضخمت مادته ، فضلا عن أنه — كما دلتنا اتجاهاته المتعددة — يسلط الأضواء على جانب واسع فضفاض من جوانب الحياة الاجتماعية . ويتمشى إلى حد بعيد مع ما تعطى المصادر التاريخية والأدبية القديمة من وصف لذلك الجانب الذى انساق فيه قطاع كبير من قطاعات المجتمع كانت له أهميته وخطورته . وإن كانت معايير الأخلاق سبباً أصيلا فى ذلك الابتعاد — فيما أقدر وأظن — فلست ممن يرون ذلك ؛ لأن البحث العلمى الأمين لا يتعارض مع الأخلاق ، والعلمية الأصيلة تستطيع أن تخضع أى موضوع ، مهما تكن صبغته ، لمناهج لا تتنافى مع ما يمس الناس فى عاداتهم أو يخدش حياءهم . وليس الصحيح وحده فى نظرى أن نكشف عن سبل الخير ومواطنه وندعو إليها وكفى ؛ وإنما من الصحيح والحق أيضاً أن نكشف عن سبل الشر والفساد والانحلال ومواطنها — مع أن الغزل فى هذه الفترة لم يكن كله فساداً وانحلالا — نوضحها وندعو إلى اجتنابها ؛ وهذه عملية تحتاج إلى قدر كبير من الصبر والأناة والجهد والعرض بحذر وتؤدة ؛ ومن هنا تمتاز فى نظرى هذه السبيل ومرتادوها على سابقتها لما فيها من وعورة وأخطار ومشاق .

غير أن هذا السبب نفسه لم يكن حائلا كبيراً فى بحث موضوع الغزل فى العصرين الجاهلى والأموى ؛ لما نجده من دراسات كثيرة أُفردت له ، نكتفى بالإشارة إلى بعضها ، ونعطى فكرة عاجلة عن بعضها الآخر ، لسبب بسيط هو أن عناوينها قد توحى بأكثر مما تشمله وتدرسه ، وربما تخدع الكثيرين وتخيل إليهم أن دراستنا هذه ليست جديدة فى موضوعها إذا ما وقفوا عند العناوين دون نفاذ إلى المضامين . من الصنف الأول كتاب « الغزل فى العصر الجاهلى » للدكتور

أحمد محمد الحوفى ، و « شاعر الغزل — عمر بن أبى ربيعة — » و « جميل بثينة » للمرحوم عباس محمود العقاد ، و « الحب العذرى » لموسى سليمان ، و « الحب العذرى — نشأته وتطوره » لأحمد عبد الستار الجوارى . وعناوين هذه الكتب واضحة الدلالة على موادها وفحواها . أما الصنف الثانى فمنه كتاب « تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام » للدكتور شكرى فيصل ، اقتصر فيه على دراسة الغزل فى الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموى بواقع أنماط من النصوص الشعرية فى كل فترة . وكتاب « الحب المثالى عند العرب » للدكتور يوسف خليف الذى تناول هذه الظاهرة الحبيّة عند العرب فى العصرين الجاهلى والأموى فقط ، ورسم صورة عامة لعفة المتيمين الجاهليين وعذرية العذريين الأمويين الذين رأى فيهم امتداداً للجاهليين ، وإن كان شعرهم أكثر ، ومستوياتهم الفنية أكثر نضجاً . وكتاب « الغزل — تاريخه وأعلامه » لجورج غريب ، وهو كتاب صغير مؤلف على نسق مدرسى ، طابعه السرعة والإيجاز ، عرض فيه مؤلفه للغزل فى مختلف العصور عرضاً سريعاً ، وخصّ العصر العباسى منه بلمحة سريعة عن تبدل الحياة ، وعرّف ببعض أعلامه تعريفاً عامّاً موجزاً ، حتى إن حديثه عن بشار وأبى نواس لم يتجاوز صفحتين اثنتين . وكتاب « الحب والغزل بين الجاهلية والإسلام » لعبد الله أنيس الطباع الذى درس فيه الغزل دراسة سريعة فى الجاهلية والعهد الأموى ، ووقف قليلا عند عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة . أما كتاب « الغزل عند العرب » لحسّان أبى رحاب فيوحى بشىء كثير جداً . ولكنه فى واقع الأمر فصول قصيرة عامة عن الغزل منذ الجاهلية حتى الوقت الحاضر ، خصص نصفه لمعنى الغزل اللغوى وألفاظه ونشأته ودواعيه وأثره ، وانتقل فى نصفه الآخر إلى تطوره ، فعرض لأنواعه عرضاً سريعاً حتى انتهى به المطاف عند الغزل فى العصر الحديث . والكتاب بعد ذلك سريع ينقصه التحليل والاستنتاج مع كثرة النصوص ، وإن بدت لصاحبه آراء وقفت عند بعضها مناقشاً . ولكنه على أية حال معذور لطول الفترة التى ألزم نفسه بها .

أخلص من كل ما تقدم للتدليل على أهمية دراسة هذا الموضوع الذى لم تفرد له دراسة مستقلة من قبل ، وإن وردت إشارات إليه فى بعض الكتب المتقدمة وفى

بعض الكتب الأدبية الحديثة الأخرى التى تناولت الأدب العباسى عامة بالدراسة والبحث ، أو فى الكتب التى تناولت أعلام الشعراء فى القرن الثانى من مثل بشار وأبى نواس ومسلم . لذلك كان لا بد من أن نعقد للموضوع هذه الدراسة ، تجمع شمله وتلمّ أطرافه وتسبر أغوراه ما أمكننا إلى ذلك السبل والأدوات ، وتكشف عن اتجاهاته وخصائصه غير مكتفية بالمشهورين من الشعراء . ولكنه من الحق وواجب الأمانة العلمية أن يقال إن باحثاً واحداً — على حد علمى — هو الدكتور محمد مصطفى هدارة تناول غزل القرن الثانى فى كتابه « اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى » فى ثلاثين صفحة (٥٠٠ — ٥٣٠) باعتباره اتجاهاً من الاتجاهات التى درسها . تناولاً أعطى فيه عن الموضوع فكرة عامة ، وأشار إلى أكثر اتجاهاته دون ما تفصيل أو استرسال . وبالرغم من اختلافى معه فى كثير مما ذهب إليه فإن الأمانة تستوجب الاعتراف بأنه كان ممن أضاءوا السبيل فى وجه هذا البحث .

ومن الأسباب الأخرى التى دعت إلى الاهتمام بالموضوع أن غزل القرن الثانى كان مصبّاً ومنبعاً فى آن واحد ، مصبّاً فيه تجمعت تيارات الغزل واتجاهاته السابقة ، ولكنها لم تبق على ما كانت عليه هناك ، بل تطورت ودخلها كثير من التجديد الذى صبغته بها أصباغ الحضارة وألوانها المختلفة ، وأدخلت فى نسجها أيضاً كثيراً من الخيوط العصرية الجديدة . ومنبعاً لما وجد فيه من اتجاهات جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، وهى — وإن كان بعضها وصمة خزى وعار فى جبين أدبنا العربى — روافد رفدت الغزل فى عصوره التالية حتى عصرنا الحاضر . وبسبب من المصب والمنبع وما كان فى طريقهما أو حواليها ازدادت الدواعى الملحة للاهتمام بالموضوع ، فضلا عن بذور كثيرة فى تطورات أخرى عرفها الشعر العربى فى غزل القرن الثانى فى أشكاله ومضامينه وموضوعاته منذ هذا التاريخ ؛ وقد استطاع البحث أن يكشف القناع عن كثير منها فى فصله الفنى الأخير . يضاف إلى جميع ما تقدم ما سبقت الإشارة إليه من أن الغزل يسلط أضواء كثيرة على أكثر من جانب من جوانب مجتمع القرن الثانى ، وهى ما استطاع البحث أن يكشف عنها فى ثنايا فصوله .

بناء على ما تقدم كان لابد من خطة ومنهج يسار عليهما ، فكانت أولى الخطوات القراءة الكثيرة فى غزل الفترة السابقة على الفترة التى أدرسها لتكوين فكرة متكاملة قبل ولوج الموضوع ، وللسير فى خطى ثابتة قبل إطلاق الأحكام وإبداء الآراء ووجهات النظر . لذلك كان لابد من أن يفتتح البحث بتمهيد مضغوط عن الغزل فى العصرين الجاهلى والأموى يوحى من تلك الدراسة ، ليضىء الطريق ويضع عليها الأمارات والإشارات الضرورية التى قد يقف الباحث عندها قبل أن يستمر استمراراً غير واع فى طريق غير معبدة يسلكها لأول مرة ، ولا يملك من معرفة أمورها وطبيعتها بادئ ذى بدء إلا النزر اليسير .

تلك خطوة تلتها خطوة أخرى قامت على الانتباه إلى ضرورة دراسة الحياة الاجتماعية دراسة واعية ، لعلاقتها المتينة بالموضوع ، ولأن ما جدّ فى الغزل من تطورات واكب تلك الحياة فى تقدمها وتطورها ، ودخلته عناصر واتجاهات غريبة وشاذة بدخول عادات غريبة وشاذة فى مجتمع القرن الثانى ، غير أن طبيعة المنهج اقتضت عدم التفصيل فى أكثر مناحى الحياة الاجتماعية لأنها لابد أن تدخل فى ثنايا البحث واتجاهاته لضرورتها اللازبة هناك ، من هنا كنت حريصاً على أن أفصّل القول فيما ارتأيت أنه لن يدخل ضمن الفصول واكتفيت بالإشارة والإيجاز فى غير ذلك تجنباً للإعادة والتكرار .

واقتضت سلامة المنهج أيضاً أن يلم البحث فى فصله الأول إلماماً سريعاً بالنواحى العلمية والعقلية لما اتضح لى أنه سيكون لهما بعض تأثير فيه فضلا عن الآثار البارزة التى خلفتها الحياة الاجتماعية . من ثم كانت العناية بالمادة التى تركب منها هيكل البحث ، وقد كانت عناية حذرة متأنية فى جمع النصوص وفهمها ودراستها لتجنب ما قد ينشأ عن بعضها من تحرج فى الرواية والتسجيل . وقام المنهج فى دراسة اتجاهات الغزل المختلفة على الربط بين حياة الشاعر وشعره وعصره وغيرها من المؤثرات ، لكن هذا لا يعنى قبول كل الروايات أو التسليم بكل الأشعار وحملها على المحمل الذى جاءت به ، ولكننى كنت أخضعها — ما استطعت إلى ذلك سبيلا — إلى مقاييس الشك والترجيح ، فكم من رواية وشعر وقفت عندهما طويلا ومناقشاً لما كان يبدو لى تهافتها وكذبها وعبثها . وقد حرصت أيضاً استكمالا

للمنهج أن أعرّف — ولو موجزاً — بعدد من الشعراء المغمورين فى شتى الاتجاهات التى سلكوها لكشف النقاب عنهم . وفى ختام الحديث عن منهج البحث أودّ أن أنبه إلى أنه يستحيل — وهو ما تبين لى — وضع الفواصل بين الشعراء فى اتجاهاتهم ، فهناك شعراء جمعوا بين أكثر من اتجاه ، وكان لهم فى كل اتجاه ميزات وخصائص ، غير أن شعراء الغزل العفيف — على قلتهم — هم الذين حافظوا على اتجاههم ولم يحيدوا عنه .

أما مصادر البحث ومراجعه فكثيرة جدًّا ، وقد أعانني أكثرها عوناً كبيراً ، وكان فى مقدمتها كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، ولا أبالغ إذا ما قلت إنه كان المصدر الذى أمد البحث بمادة كبيرة وهامة عن الحياة الاجتماعية وأنماطها المختلفة ، وزوده بعدد كبير من الشعراء ، سواء كانوا من مخضرمى الدولتين أم من شعراء الدولة العباسية ، وقد انفرد فى أحيان كثيرة بالترجمة لشعراء لم أعثر لهم على تراجم فى غيره من المصادر القديمة . وثمة مصادر أخرى أفدت منها فى الحياة الاجتماعية ، فمن الكتب التاريخية على سبيل المثال تاريخ الطبرى ومروج المسعودى — وتاريخ بغداد — وكامل ابن الأثير ، ومن كتب الأدب العامة : التاج فى أخلاق الملوك والبيان والتبيين للجاحظ بالإضافة إلى بعض رسائله من مثل « مفاخرة الجوارى والغلمان » ورسالة « القيان » ، وكتاب « الموشى » للوشّاء الذى عرض عرضاً مفصلا لطبقة الظرفاء فى مأكلها وملبسها ومشربها ووسائل عيشها المختلفة وتقاليدها وعاداتها ، وقد أفدت من هذا الكتاب كثيراً إذ كان لأكثر ما عرض له أصداء واضحة فى الغزل . كما أفاد البحث أيضاً من كتب السير والتراجم من مثل الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وطبقات ابن المعتز ، وورقة ابن الجراح ، ومعجم شعراء المرزبانى ، ومعجم أدباء ياقوت ، ووفيات ابن خلكان وغيرها . وأفاد أيضاً من كتب الجغرافيا والبلدان والديارات وخاصة فيما يتعلق بغزل شعراء الديارات ، ومن تلك المصادر : الديارات للشابشتى ، ومعجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكرى ، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى .

وليس بفائتى أن أشير إلى أن ما تيسر من دواوين ومجاميع شعرية لعدد من الشعراء من مثل بشار وأبى نواس ومسلم والعباس بن الأحنف والحسين بن الضحاك ،

ومطيع بن إياس ، قد سهل الأمور كثيراً ، وفتح أمامى المجالات ، بحيث أعانى توافر الأشعار وكثرتها على الخروج بعدة آراء ووجهات نظر فى الموضوع .

وأفدت فى دراسة الخصائص الفنية فى البحث من عدد من المصادر فى النقد والبلاغة من مثل الشعر والشعراء ، وعيار الشعر لابن طباطبا العلوى ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ، والموشح للمرزبانى ، والصناعتين للعسكرى ، وعمدة ابن رشيق ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى والمثل السائر لابن الأثير ، ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجنى وغيرها .

أما المراجع الحديثة فلست أنكر أننى قرأت كثيراً منها ، بعضها قرأته وطويته ولم أنقل عنه شيئاً وإن خرجت منه بأفكار عامة ، وبعضها أخذت عنه ووقفت عند كثير من آراء أصحابه وقفات شتى مخالفاً حيناً وموافقاً أحياناً بحسب متطلبات الموقف نفسه . إن واجب الأمانة العلمية يدعونى إلى أن أعترف بأننى قد أفدت كثيراً من بعض المؤلفات الحديثة التى كانت لى بمثابة منائر على الطريق ، وخاصة ما ألف منها فى الأدب العباسى أو فى جزء منه من مثل كتابى الدكتور شوقى ضيف « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » و « العصر العباسى الأول » ، وكتاب « اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى » للدكتور مصطفى هدارة ، و « الحياة الأدبية فى البصرة » للدكتور أحمد كمال زكى ، و « حياة الشعر فى الكوفة » رسالة الدكتور يوسف خليف للدكتوراه ، وكتاب « موسيقى الشعر » للدكتور إبراهيم أنيس وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره هنا مما تناثرت الإشارات إليها فى هوامش البحث .

ولما كان من خطة البحث الاستعانة بالدراسات النفسية فيما يتعلق ببعض الشعراء فقد أفاد البحث من بعض الدراسات النفسية الحديثة لمؤلفين من أجانب وعرب ، ومن هذه الدراسات كتاب « ثلاث رسائل فى نظرية الجنس » لفرويد ، و « أسس الصحة النفسية » للدكتور عبد العزيز القوصى ، و « سيكولوجية المرضى وذوى العاهات » للدكتور مختار حمزة . وكان من حتمية البحث العلمى فى هذه الناحية وعلى ضوء ما أمدتنا به تلك المراجع أن نعرض لما كتبه عن أبى نواس خاصة كل من المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « أبو نواس » ،

والدكتور محمد النويهى فى كتابه « نفسية أبى نواس » .

أما المراجع الأجنبية فلقد كان أكثر ما أردته منها مترجماً إلى العربية ، وأعترف أننى أفدت من بعضها ، وخاصة فيما يتعلق بالحضارة من مثل كتاب « الحضارة الإسلامية » للمؤرخ الهندى خواد بخش و « الحضارة الإسلامية » لفون كريمر ، وبعض دراسات المستشرقين فى كتاب « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » الذى ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وفى « دائرة المعارف الإسلامية » بترجمتها العربية وبا لإنجليزية .

وبعد : فلا أملك إلا أن أقول ما أنا إلا مجتهد حاول أن يقول شيئاً ويقدم شيئاً ، فإن وفقت فى بعض ما قلت فبها ونعمت ، وإلا فحسبى نصيب المجتهد وأجره ، ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق ، فهو نعم المولى ونعم المعين .

يوسف حسين بكار